العمل ٥. كانون الثاني ١٩٥١

في دنيا الفكر بقلم منصور شليطا

أنحن مصابون بمرض الكلام

حول مناظرة بين ميشال شيحا ومحمد النقاش

بصدد الغلو والمبالغة باللغة العربية.

نشر الأستاذ ميشال شيحا منذ أيام افتتاحية في جريدته "لوجور" عالج فيها موضوعاً هاماً وددت لو عالجه المفكرون كل يوم، هو موضوع اللغة العربية ومميزاتها وتأثيرها في الشعوب التي تنطق بها. وقد أخذ الأستاذ شيحا على الدول العربية إجمالاً (وعلى الحكومة اللبنانية بنوع خاص) الأكثار من التصريحات العنترية والألقاب المنتفخة الجوفاء والعبارات الرمزية والمجازية المزخرفة التي تخدع قائليها وسامعيها معاً فتعمي بصيرتهم وتبدل الواقع في نظرهم فيكتفون من العظمة بخيالها ويقنعون بالحلم والسراب.

ونسب الأستاذ شيحا هذا الإنحدار الى كتاب اللغة الأقدمين، وقد تعودوا منذ أجيال أن يمزجوا بين الواقع والخيال مزجاً مضلاً خطيراً حتى أوصلوا إلينا لغة تتسع للمبالغة والإسراف والمجاز والغلو كأنها تعبر عن أبسط الوقائع وأصحّها . وأضاف إن هذا الإضطراب الذي نلمسه في سياسة الدول العربية وهي سياسة مصيبتها أن أربابها يظنون أن عظمتهم تزيد بقدر ما تزيد القابهم، وإن بوسعهم أن يحاربوا العالم بقوة التصريحات والخطب والقصائد.

وفي اليوم التالي ردّ الأستاذ محمد النقاش على الأستاذ شيحا في جريدة "بيروت" دافعاً انتقاده بحزم مؤكداً له "أن اللغة العربية ليست في حاجة الى البساطة والحقيقة والدقة، فهي في الأصل لغة الخيمة والبادية، والغلو والتنميق والتعقيد ليست من طبيعة الإعرابي.."

وذهب الأستاذ نقاش الى الدفاع عن الخلفاء فيما خص تأثيرهم في اللغة وعلاقاتهم بها فأكد أنهم حرصوا دائماً على الحقيقة والبساطة والدقة في اللغة وأضاف : "أما الخلفاء وكتّابهم الذين عاشوا في القرون الوسطى كعبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ فليتنا في هذه الأيام نكتب مثلهم إيجازاً ودقة ووضوحاً".

قرأت مقال الأستاذ نقاش وأنا فيّ شيء من الحيرة والإرتباك. فأنا من محبي اللغة العربية ومن المعجبين بها الى أبعد حد. وقد اتقنت الفرنسية والانكليزية وألممت بالاسبانية والبرتغالية فلم أجد في إحداها الامكانات البيانية الفريدة التي تتميز بها اللغة العربية. ولم أقرأ كتاباً فيه من قوة الأسلوب وسحره ما في كتاب "الأغاني" وكتاب "البخلاء"ولا أعتقد أن هناك لغة يمكنها أن تفخر بنثر بلغ درجة من الكمال تقرب من نثر علي بن أبي طالب.

لكن حبي للغة العربية وإعجابي بإمكاناتها وروائعها لا يعمياننني عن نواحي الضعف فيها بل يدفعانني الى البحث عنها واعلاء شأن من يقودني اليها لأن النقد الواعي والشجاعة على الإعتراف بالنقص والخطأ والضلال هما في اللغة وفي كل حقل وعمل طريق التقدم الاوحد. ومَن يجسر أن يدّعي أن اللغة العربية أو أية لغة أخرى قد بلغت كمالاً لا تقدم بعده ؟

وسواء كان القارىء ملماً باللغة العربية إلماماً بسيطاً أو كان سيداً من أسيادها مثل الأستاذ النقاش فلا بد له أن يعترف إذا كان مخلصاً أن القسم الأكبر من الآداب العربية لم يتبع، بكل أسف، خطة البساطة، والدقة التي وسمها عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ. وليأذن لي الأستاذ نقاش أن أذكّره أن واحداً منهم، باستثناء عبد الحميد، لم يحظ من خليفة بنعمة. فإبن المقفع قُتِل بأمر الخليفة المنصور، واختفى الجاحظ خوفاً بعد أن بويع للمتوكل.

ومها يكن فضل الخلفاء عظيماً على السياسة والعلم والعمران والإدارة والعدل فإنهم لم يهتموا إجمالاً بكتاب مثل الجاحظ وابن المقفع، ولم يفتشوا في الأدب عن الحقيقة والبساطة والدقة بل كثيراً ما كانوا يفضلون ويقربون منهم شعراء المدح والفخر والرثاء، وزعيمهم المتنبي، ويكفي أن نلقي نظرة على دواوينهم لنعرف كيف كانوا يعيشون بالبساطة والحقيقة والدقة، بل كيف كانوا يدوسونها ويمتهنونها ويبيعونها بالدراهم في قصائد المدح والرثاء وهم لا يشعرون أنهم يقتلون روح الديمقراطية في لغتهم في سبيل المتعة الخالصة في قصائد الفخر والغزل.

ولو جئنا نروي جميع مظاهر هذا الإغداق في الإسراف والمغالاة والغلو لما وسعها كتاب.

ومن أظرف ما يمكن ذكره على سبيل المثل أبيات ذاك الشاعر البدوي الذي لم يرَ البحر في حياته ولم تملك قبيلته زورقاً ومع ذلك أنشد بكل فخر :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

إذا بلغ العظام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدين

(يا ويل الجبابرة !)

وهناك قصة تفوق هذه الأبيات طرافة، هي قصة جرير ووالده. وقد كان والده رجلاً دميماً حقيراً قذراً. لكن جرير كان يفخر به في شعره فيصوره كأنه نصف إله. سئل جرير يوماً من هو أشعر العرب، فلم يجب بل نادى والده فجاء (وكان يرضع العنزة والوسخ يكسوه) فقال جرير إن أشعر العرب هو من فاخر عشرين شاعراً بهذا الوالد فدحرهم.

(سلام على قوة الكلام ! أغلت قصائد جرير شيئاً من قذارة والده ؟)

والأمثال المماثلة كثيرة لا تحصى. أظرفها ما جاء في شعر المتنبي فخراً ومدحاً ورثاء وغزلا. والمتنبي هو القائل في محمد بن اوس :

لم يخلق الرحمن مثل محمد أحداً وظني أنه لا يخلق

ولم يمنعه ذلك أن يقول في بدر :

.. لو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فكان العالمون مجوسا

وكان المتنبي يحب الغلو في كل قول فقال في باب الغزل :

إن كنت ظاعنة فإن مدامعي تكفي مزادكم وتروي العيسا

وقد علق الدكتور طه حسين على هذا البيت بقوله : "أترى الى هذه الدموع التي يسفحها المتنبي ! فإذا هي من الغزارة بحيث يستطيع القوم أن يأخذوا منها ما يملأ مزادهم ليشربوا أثناء السفر، وما يكفي لري الإبل أثناء السفر أيضاً. ولكن المتنبي لم يسأل نفسه أتصلح دموعه لشرب صاحبته الحسناء ؟"

أما الرثاء فكان مسرحاً لمبالغات مماثلة وكثيراً ما لم يكن يتم رثاء الميت الا بهجو الأحياء كلهم :

أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يا مرداس بالناس

ولم تغدق المدائح على الناس وحدهم بل تعدتها الى الجرامد والحيوانات. فقد بنى أبن عباد في العصر العباسي قصراً فهنّأه به خمسون شاعراً، ومات حمار لصاحب له فرثاه الشعراء بأكثر من خمسين قصيدة

(لو كانت الحمير كمن فقدنا لفضلت الحمير على الرجال !)

ومشت الأجيال، والغلو والمبالغة والإسراف على أحسن حال، وعلى ازدياد، حتى أصبح مرض الكلام مرضاً راسخاً فينا تزول أمراضنا الأخرى ولا يزول، وهوما برح يفسد عقولنا وأذواقنا وأعمالنا حتى اليوم : ألا ترانا إذا هجرنا عدواً هجوناه بقصيدة، واذا فاتنا مجد الأعمال استعضنا عنه بمجد الأقوال، وإذا مات أمير أو صديق سيرنا الشمس والعمر في مأتمه. ألا ترانا ما زلنا نستعمل الفخر الفارغ ونؤمن به، ونسعى الى المدح الكاذب ونسرّ به، ونظن أننا أتممنا واجبنا نحو بلادنا وعقيدتنا إذا كتبنا مقالاً رناناً أو ألقينا خطاباً نارياً أونظّمنا قصيدة عصماء ! وننسى أننا نعيش في عصر أصبحت السيطرة فيه للإرادة العاملة وللذكاء المنظم وللذوق والبساطة، وللنار والحديد وللغة الصريحة المختصرة الموزونة، لا للمخيلة الهوجاء والكلام المزركش !

وقد تغلغل هذا الغلو في عاداتنا وأحاديثنا حتى غدا جزءاً منها فما عدنا نشعر به. وأمامي الآن مئة مثل ومثل عليه مأخودة من الندب والميجانا والعتابا وقصائد الشعراء وأقوال الجرائد وخطب الحكام وأحاديث العامة وأسماء العباد.

وفي أية لغة تجد اليوم الناس يتسمون بمثل هذه الأسماء الرنانة الشائعة عندنا : أسد، سبع، ديب، نمر، فهر، ضرغام أو : شمس ، بدر، قمر، نجمة، ثريا، دره...

وأية لغة عصرية تتسع لمثل هذا الندب الذي ألفناه :

"انهزت أقطاب العوالي"

"وانكسف قطب الشمالي"

"يا جيل عالي وهايل"

"يا مطفطف على قبايل"

"حالة القانون بعدك"

"مثل حالة برج بابل"

"خزقوا روب المحامي"

"وأقفلوا أبواب الشريعة !"

أو لمثل هذا الغزل الذي تصفق له جماهيرنا تصفيقاً شديداً :

بو الزلف يا بو الزلف عيني يا موليا

وعيون تشوي سمك في بركة المايه.

واسمعت تكة حجل من نغم حسونك

وانهد ركن الجبل حين ما ملت عيونك

هتلر لو جعل سلاحو من غمز عيونك

ما كان جيشو انكسر من غمز عيونك

وفي أية لغة ما زلت تسمع هذه الألقاب الممسوخة الجوفاء التي ما نزال نلبسها رجال حكومة وأصحاب المراكز كما كانت تعلق القطع المعدنية الثقيلة في أعناق زعماء القبائل الأفريقية لألف سنة خلت، وأين رب السموات نفسه من هذه الألقاب ومنها التفخيم والتعظيم والترفيع التي تملأ خطبنا وجرائدنا وتستعملها العامة وتقبلها الخاصة ولا يشعر أحد منهم بخجل. وأين لغتنا اليومية – لغة الجرائد ولغة الشعب – من البساطة التي تفرضها الديمقراطية ؟ بل أين روح الديمقراطية في المستوى الذي أنزلنا إليه لغة علي بن أبي طالب ؟ فواحدنا، على حد قول الجرائد والناس لا يقدم عريضة الى وزير بل يرفعها الى معالي الوزير كأن الشعب في قعر واد والوزير على قمة فوق رأسه. وزائرنا لا يؤم بيروت بل يشرّف بيروت. ومَن من أدبائنا لا يلقب بنابغة ؟ ومَن من شبابنا لا يوصف باللمعان كأنه من البلور الصافي ؟ ومَن منا لا يتكلم عن فلان الذي هو "زلمة" فلان، كأننا ما زلنا في عهد الرق !

ومن الطبيعي – وأين العجب ؟ - أن يتأثر سلوكنا وأن تتأثر سياستنا بهذا السخف اللفظي. ومن يستغرب أن يعلن عزام باشا الحرب على اميركا وانكلترا وروسيا حين نملك من "غمز العيون" ما يهزم الجيوش، وحين يملك أصغر وزرائنا من الألقاب ما لا يحلم به عشرون ترومان !

وهذه هي المصيبة في مرض الكلام عندنا أنه يبدل الوقائع في نظرنا (أي في نظر الحكومة والشعب معاً) فما تلبث الوقائع أن تنتقم منا انتقاماً مريعاً.

وأنى لنا أن نعدد جميع المصائب التي أنزلها بنا مرض الكلام على ممر العصور ! وقد توجت أخيراً بحرب فلسطين المشؤومة. فبينما كان اليهود يتهيأون لها مالياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً كان زعماؤنا يهدرون الدماء انهاراً في خطبهم وقصائدهم. وكانت جامعة الدول العربية – عوض أن توزع الأسلحة – توزع الآف النسخ من نشيد تحرير فلسطين وقد جاء فيه :

يا بني الشرق واحفاد الالى سابقوا الشمس على عرش العلا

اشرقوا في الافق نورا ولهب واملاؤا الكون بابات العجب

وعلى التاريخ خطوا بالذهب سبح الدهر بأمجاد العرب

آل صهيون خلدتم في الجحيم يا وقود النار يا حصد الهشيم

طعمة النيران ذوقوا بأسنا ما لنا الدهر سواكم من غريم

ثم وقعت الحرب. فانتصرت الأسلحة على القصائد.

أما أمثولة ذلك كله فهو أنه حان لنا أن نتحرر من عيادة وثن الكلام – والألقاب والكليشاهات اذا كنا نريد أن نتحرر من ضعفنا ومصائبنا فنلحق بالعالم ونسبقه.

وأول شرط من شروط تحررنا هو أن ننتصر على الخجل بالإعتراف بالنقص والخطأ، أن ننتصر على مركب النقص كما يقولون وأن نواجه الحقيقة بغير وجل.

إن اللغة العربية هي أغنى وأجمل لغة في العالم. وقد بلغت في الماضي درجة من الرفعة والكمال المدهشة عندما كانت اللغات العصرية ما تزال في عهد التمتمة والبربرية. وقد أخرجت اللغة العربية عندئذ روائع ساطعة يمكننا أن نفاخر بها العالم.

لكن اللغة العربية بليت على مر العصور بشعراء وأدباء أدخلوا اليها الإسراف والغلو بغير حساب حتى أصبحا كأنهما جزء من طبيعتها. فعلينا أن نحررها من جديد ونصفيها وننقيها ونعود بها الى بساطتها الطبيعية والى عهدها الذهبي كما فعل غيرنا من الشعوب بلغاتهم. فحرام علينا أن يكون عندنا علي بن أبي طالب والجاحظ والأصفهاني وأن تكون لغتنا مشحونة بالسخف الذي ذكرناه.

ويجب ألا ننسى أنه ما دامت لغتنا فريسة الكلام الفارغ فسياستنا كذلك ستظل فريسة الكلام الفارغ. وسنظل نلعب بالشموس والأقمار، ونهد القطب الشمالي (والجنوبي) وسيظل عزام باشا يعلن الحرب باسمنا على العالم، ثم تهزمنا شرذمة من الصهيونيين !